الوطنية

مترجمة عن مجلة القصص الواقعي الانجليزي

بقلم الأديب محمود السيد شعبان

تزوجتُ من (هانز) — وهو أحد الجنود الألمانيين — لعام واحد قبل الحرب العالمية الضروس التي أهلكت كل حيّ ودمرت كل شيء، بالرغم من أني فرنسية الأصل والجنس ... وكان أول عهدي به أن لاقيته في معرض من معارض الفنون في (باريس) — وكان قد ذهب إليه زائراً — فلما سمعته يتكلم الفرنسية بطلاقة تحدثت إليه، فملكني حديثه العذب الفكه، وأسرني غزله المرح الرقيق، فكان ما كان، وانتهى بنا الأمر إلى الزواج بعد قليل.

وتركت وطني راضية لأعيش مع زوجي (هانز) في قرية صغيرة من قرى ألمانيا. وعشت بين أحضان عائلته في سعادة ورفاهية، ورغد وبَلَهْنِيَة. وصار أصدقاؤه مع مضي الزمن أصدقائي، وخُلَصاؤه خُلَصائي، وأقاربه أقاربي! وما مضى على وجودي بينهم غير قليل حتى تعلمت كيف أتكلم الألمانية، وحتى كدت أنسى أني كنت فرنسية الجنس واللغة في يوم من الأيام. ونقلني (هانز) بما حباه الله من قوة وسحر إلى دنياه فذقت لذة الهناء، وحلاوة الصفاء، ومتعة الحب!!

ولكن هذا النعيم لم يدم طويلاً وا أسفاه!

فقد أعلن لي (هانز) في يوم من الأيام — وقلبه يفيض حزناً، ونفسه تمتلئ أسفاً، وجسمه ينتفض فرقاً — أن ألمانيا قد أعلنت الحرب على أعدائها، وأنه سيسافر إلى ميدان القتال لأن اسمه قد درج بين أسماء المحاربين هناك ... ثم رجاني أن أعود إلى (باريس) — وفي الوقت فُسْحَةٌ — خوفاً من أن تجدّ ظروف تحول بيني وبين ذلك.

وقد كان (هانز) — بالرغم من كل ذلك — على يقين من أن الحرب لن تستمر أكثر من ثلاثة شهور على أكثر تقدير، وأنه سيعود إليّ بعد ذلك..

وأحسست بعد أن أفقت من صدمة هذا النبأ الفاجع، وهول هذا الخبر المؤلم — أن حبي لزوجي (هانز) أقوى وأعنف بكثير من حبي لوطني (فرنسا)!

وشعرت أن كل ما هو حبيب إليه أحب إلى نفسي من كل ما سواه، وأن كل ما هو عزيز عليه أعزّ على قلبي من كل ما عداه. ومن أجل ذلك أهبتُ بنفسي أن أكون ما حييت فداء لهانز وللقيصر ولألمانيا متحملة في سبيل ذلك ما قد ينتابني من الألم أو يمسني من السوء ...

وودعت (هانز) وأرسلته إلى المعركة، وقلبي يفيض إعجاباً، ونفسي تتيه فخاراً. وقد كنت أنا أيضاً أعتقد أن الحرب ستضع أوزارها عما قليل، وأن (هانز) سيعود إليّ سليماً قوياً آمناً. وانقضت شهور عدة فما خمد لهيب الحرب وإنما ازدادت المهالك

المشتركة فيها عَدَداً وعُدَدا . وكان (هانز) يرسل لى بين الحين والحين بعض الرسائل — وهو فى ميدان القتال — فكنت أجد فيها قليلاً من المتاع واللذة ، وشيئاً من الراحة والطمأنينة ، ووميضاً من السلوان والأمل ! ولكنى ما كنت أريد إلا أن أرى وجهه ، وأسعد به فى جوارى مرة أخرى !

* * *

أواه يا قلبى !

إننى ما رأيت (هانز) بعد ذلك اليوم أبداً ، وما كنت أحسب أننى قد ودعته الوداع الأخير ! فقد ترامى إلىّ أن طائرة فرنسية دمرت الكمين الذى كان يختبئ فيه — بعد مضى عشرة شهور من بدء الحرب — فقضى نحبه محترقاً . وكاد الحزن يفقدنى عقلى ويورثنى الخبل ...

ومن ذلك اليوم تولدت فى نفسى الكراهية والبغضاء لفرنسا ، وتمنيت لو استطعت أن أثأر لزوجى أو أنتقم له من أولئك الذين قتلوه ! وأحببت لو أن فرنسا خرجت منهزمة منكسرة من الحرب بل مُدَمَّرَة مُهدمةً مُخربة ! ! ولكن السنين — واحسرتاه — قد خيبت ظنى ، إذ وقعت الهزيمة على ألمانيا ؛ فملأت الأحلام المفزعة فؤادى ، وأفعمت الأوهام القاتلة خيالى ؛ فصدقت كل ما يقال عن قسوة الألمانيين ، وكل ما يذاع من أنباء اعتدائهم على الأطفال الآمنين والنساء الضعيفات . فدعوت الله من قلب خالص أن ينصر القيصر ويكتب له الفوز المبين ! !

... وفى يوم من أيام سبتمبر من عام ١٩١٨ أجلى الفرنسيون الألمانَ عن قريتنا ، ولكن الألمانيين تمكنوا — قبل غروب شمس ذلك اليوم — من استرداد قريتهم المسلوبة ومحاصرتها وتطويقها ...

واستيقظتُ على حين غِرّة على صوت مزعج ودوي هائل وضجيج وجلبة فى حجرة الاستقبال التى فى الطابق الأسفل من منزلى ، فارتديت منامتى على عجل وأضأت المصباح الكهربائى الذى ينير الدَّرَج ثم هبطتُ الدركات مسرعة يدفع بعضى بعضاً

* * *

فماذا رأيت هناك ؟

... لقد رأيت جندياً فرنسياً يرتدى ملابسه العسكرية متكئاً بجانبه على المنضدة ، والدم يتفجر غزيراً من جرح فى رأسه ، وكانت سترته ملطخة بالوحل ، وعلى وجهه أثر مما يعانى من الألم ويقاسى من الجهد ...

وما كاد الرجل يرانى — وأنا أقترب منه — حتى ألقى إلىّ نظرة فيها كل معانى الاسترحام كأنما يستجدى بها المعونة ، ويرجو بها الغوث . ثم مَدّ إلىّ إحدى يديه كأنما يعلن إلى أن لا حول له ولا قوة

فقلت له بلهجتى الفرنسية الوطنية : « هل يؤلمك هذا الجرح كثيراً ؟ »

ففتح الجندى عينيه على مهل ثم قال : « هل سيدتى ... فرنسية ؟ »

وما أدري لماذا أحسست ساعتئذ بثورة فى دمى وهزة فى جسمى ، وخفقان فى قلبى !

وقلت للجندى : « نعم ، إننى فرنسية ، ولكنى مقيمة هنا . . إني ... أنا ... ! »

وأمسك الجندى بذراعى ثم قال : « إن الواجب يحتم عليك أن تساعدينى . لقد حسبنى زملائى ميتاً فتركونى ، والآن يجب علىّ أن أرجع إلى صفوفنا ! يجب علىّ ... »

وما كاد يتم كلامه حتى سمعت دقاً عنيفاً على الباب ، وصوتاً عالياً ينادى : « أيتها السيدة ! ... أيتها السيدة »

كانت فى منزلنا حجرة صغيرة اعتاد (هانز) أن يقضى فيها شئونه الخاصة ؛ فلما مات أغلقت بابها الصغير ثم غطيته بستر يحجبه عن الأبصار ، وأبقيت الحجرة على ما كانت عليه ، فلم أتناول أى شىء فيها بتغيير أو تبديل كأنها مكان مقدس لا يُمسّ ، أو كأنها الموئل الذى تستريح فيه روح زوجى وتطمئن إليه ...

وما أدرى ما الذى دفعنى إلى أن أنتهك هذا الحرم المقدس فى ذلك الموقف العصيب !

لقد قُدْت الجندى الفرنسى إلى الحجرة فرفعت الستر عن بابها ، ثم فتحته ، وبعد أن أدخلته فيها أغلقت بابها ثم أعدت الستر إلى موضعه ...

واشتد الدق على الباب الخارجى عنفاً ، وما كدت أفتحه حتى دخل منه جندي ألمانى ضخم الجسم كبير الجرم أحمر الوجه ، فدفعنى جانباً وأزاحنى عن طريقه ، ثم أخذ يجول فى أنحاء البيت كيفما شاء باحثاً عن الجندى الفرنسى . ففتش المطبخ ثم الحمام فلما لم يجد غريمه اندفع يرقى الدَّرَج إلى أعلى

و تَلَبَّثْتُ فى موضعى حتى عاد إلىّ ، وحرصت على أن أكتم شعورى ، وأكبح عواطفى ، وأدفع عن نفسى رجفة كادت تهزنى . وحاولت أن أبعد عينى عن الستر حتى لا ألفت نظر الألمانى إليه

وما كاد الجندى يقف أمامى وجهاً لوجه حتى أدركت أنه مخمور لا يعى !

وقال لى بصوته الغليظ الخشن : « إننى ... إننى أظن أنى قد رأيت كلباً فرنسياً يجرى فى فناء دارك وما أرتاب فى أنه قد تسلق الحائط ودخل منزلك من النافذة ... إنى ... إنى ... ! »

فأجبته بهدوء : « لقد بحثت بنفسك فلم تجد أحداً هنا »

وكان من العسير عليه أن يدرك ما يقول أو يفكر فيه فقال : « أنا ... أنا ... لقد أخطأت .. أنا ... أنا ... »

وانتشرت على شفتيه ابتسامة شيطانية ما رأيت أخبث منها ثم قال : « هل تعيشين هنا .. وحيدة؟! »

فأجبته : « نعم . إننى أعيش هنا وحيدة منذ أن قتل زوجي »

فاقترب منى شيطاناً فاجراً ، وعربيداً داعراً ، ومخموراً خبيثاً وهو يتمتم : « وعلى ذلك فأنت تعيشين هنا وحيدة ؟ ! »

ولكن بالرغم من كل ذلك لم أتحرك من موضعي ولم أتزحزح عنه ، بل قلت له : « ألا تظن أنه من المستحسن أن تخرج الآن لتبحث عن الكلب الفرنسى فلعلك عاثر عليه ؟ ! »

ولكنه أجابنى — بعد أن طوق خصرى بذراعه وضمنى إليه بعنف — : « لا .. لا .. لقد ذهب ... و ... وأنا لا أريد أن أبرح هذا المكان ... بل أريد أن أمكث هنا بأية طريقة !! »

وأحسست بعد ذلك بشفتيه تنطبقان على عنقى . ثم قال : « ستكونين — ولا ريب — متساهلة لينة الجانب معى ... أليس كذلك ؟! »

وحاولت أن أدفعه بعيداً عنى ثم قلت له : « أرجوك ... »

ولكنه ضمنى إليه بقوة ، ثم تتابعت أنفاسه سراعاً وهو يقول : « لاتقاومى ... فلن تجديك

المقاومة شيئاً . لابد مما أريد ... وتستطيعين أن تنسى كل شئ عند ما أتركك إن كنت لا تريدين أن ... ... لاتقاوى ... !! »

وهممت أن أصرخ مستغيثة ولكنى تذكرت أن صراخى سيجلب دون ريب عدداً كبيراً من الجند ، وأن هؤلاء سيفتشون وسيبحثون من جديد عن الجندي الفرنسى . فقلت للجند الألمانى : « أرجوك ... أرجوك أن تدع هـذا لوقت آخر ... ... !! »

فقهقه الرجل ثم قال : « لوقت آخر ؟ ! وقت آخر ؟! ربما يكون ذلك عند ما أموت !! »

وما تلبّثت حتى حملنى على ذراعيه وأخذ يصعد بى الدَّرَجَ إلى أعلى . ولكنه لم يكد يخطو خطوة واحدة حتى سمعنا صوتاً يقول على حين غِرَّة : « إننى آسف ياسيدتى على ماسببت لك من تعب ..!»

وما سمع الألمانى هذا الصوت حتى أنزلنى من فوق يديه وأوقفنى على قدمىّ ، ثم أدار وجهه فيما حوله وإذا ... وإذا بالجندى الفرنسى واقفاً أمامه وجهاً لوجه ، منتصب القامة ، مرفوع الهامة ، بالرغم مما يقاسى من جراحه ، وما يعانى من آلامه ! وإذا به يبسم لنا بالرغم من أنه يكاد يُغمى عليه من الألم ، ويُغشى عليه من الجهد والإعياء

* * *

— « إننى سجينك الذى تبحث عنه ، وأسيرك الذى ترجوه !! إننى حاجتك وطِلبَتُك ... وما دام الأمر كذلك فهيا بنا إذن نذهب من هنا ونترك هـذه السيدة الكريمة فى سلام وطمأنينة !! » هكذا قال الجندى الفرنسى للجندى الألمانى الذى أذهلته المفاجأة فوقف مرتبكا لايدرى ماذا يفعل . وأخيراً قال هامساً فى نفس متقطع :

« نعم ... نعم ... إنك سجينى ! »

وخرج الرجلان من دارى وسار معا ؛ وعلى ثغر الفرنسى ابتسامة لاتفارقه ، وعلى وجه الألمانى حيرة وذهول !

وما رأيت الجندى الفرنسى بعد ذلك اليوم أبداً . فياليت شعرى هل مات فى الحرب أم هو ما يزال حياً إلى اليوم ؟ ! ولو أننى رجعت إلى (باريس) بعد الحرب لما تباطأت فى البحث عنه حتى ألقاه فأشكره على ما أسـدى إلىّ من عارفة وما قدّم إلىّ من جميل

ولكنى وا أسفاه لم أعد إلى فرنسا ، لأن حياتى فيها تزور على نفسى ؛ ولم أبق فى ألمـانيا ، لأنى فجعت فيها بموت زوجى الذى كنت أعيش من أجله على أرضها ؛ بل أتيت إلى انجلترا لأبدأ حياة جديدة ، وما نسيت هذه الذكريات المؤلمة فى يوم من الأيام بالرغم من مرور هذه السنين الطوال

محمود السيد شعبانه

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

٥٠	السنة الأولى فى مجلد واحد
٧٠	كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد